المحاضرة الخامسة عشرة: بيير بورديو وعلم الاجتماع النقدي

علم الاجتماع عند بيير بورديو: تفكيك التصورات السائدة

يعتقد بيير بورديو أن علم الاجتماع ليس مجرد أداة تحليلية محايدة، بل هو مشروع نقدي يهدف إلى تفكيك الأفكار المألوفة وإزالة الطابع الحتمي عن العالم الاجتماعي. على عكس التقنيين الاجتماعيين الذين يتعاملون مع البحث كمهندسين ينفذون مهام محددة، يرى بورديو أن عالم الاجتماع يجب أن يكشف الأساطير التي تعزز السلطة وتكرّس السيطرة. لكن هدفه ليس إقصاء الآخرين أو إثارة الشعور بالذنب لديهم، بل توضيح أن السلوكيات الاجتماعية ليست عشوائية أو طبيعية تمامًا، بل هي نتيجة قيود اجتماعية معينة. هذا الفهم يساعد في تحليل العلاقات الاجتماعية وإعادة بنائها بطريقة أكثر وعيًا وعدالة.

مفهوم الفضاء الاجتماعي عند بورديو:

ينطلق بورديو من فكرة أن المجتمع ليس مجرد كيان متجانس، بل هو فضاء اجتماعي معقد حيث تتفاعل الأفراد والمؤسسات ضمن شبكة من العلاقات المتغيرة. استلهم بورديو هذا المفهوم من التراث الغني لعلم الاجتماع الكلاسيكي، مستفيدًا من أفكار ابن خلدون، وأوجست كونت، وإميل دوركايم، وكارل ماركس، وماكس فيبر. لكنه قام بتطويره ليشمل الأبعاد الرمزية والاقتصادية والثقافية التي تشكل ديناميكيات القوة داخل المجتمعات.

تشبيه الفضاء الاجتماعي بمباراة رياضية:

يستخدم بورديو استعارات رياضية لتوضيح كيفية عمل المجتمع، حيث يشبهه بملعب رياضي، مثل ملعب الرجبي، حيث يتنافس الفاعلون الاجتماعيون وفق قواعد معينة، لكنهم في نفس الوقت يتمتعون بمساحة من الحرية والارتجال. فكما أن لاعب الرجبي لا يكتفي بمعرفة القواعد، بل يحتاج أيضًا إلى "حس المباراة" والقدرة على قراءة تحركات اللاعبين الآخرين، كذلك الأفراد في المجتمع لا يكتفون بمعرفة القوانين الاجتماعية، بل يحتاجون إلى فهم العادات والثقافة غير المعلنة التي تحكم المجال الذي ينشطون فيه.

الهابيتوس: الميول المكتسبة وتشكيل السلوك الاجتماعي:

من أهم إسهامات بورديو في علم الاجتماع هو مفهوم "الهابيتوس" (Habitus)، الذي يشير إلى مجموعة من الميول والأنماط السلوكية التي تتشكل لدى الأفراد من خلال التجارب المتكررة، وليس فقط من خلال التعلم النظري. فمثلاً، الرياضي المحترف لا يصبح بارعًا بين ليلة وضحاها، بل يكتسب مهاراته عبر سنوات من التدريب والممارسة. وبالمثل، يتكون "الهابيتوس" لدينا من خلال بيئتنا الاجتماعية وتجاربنا الحياتية، مما يؤثر على اختياراتنا وطموحاتنا، وحتى الطريقة التي نرى بها

الفرص والتحديات. وهذا يعني أن العديد من السلوكيات التي تبدو طبيعية أو بديهية هي في الواقع نتاج تراكمات تاريخية وثقافية، وليست بالضرورة تعبيرًا عن إرادة فردية خالصة.

المجالات الاجتماعية: قواعد اللعبة المختلفة

يشير بورديو إلى أن كل مجال اجتماعي—سواء كان في السياسة، الأدب، الاقتصاد، أو الرياضة—يعمل وفق قواعده الخاصة. يسعى الأفراد في هذه المجالات لتحقيق أهداف متنوعة مثل السلطة، الثروة، أو الشهرة. على سبيل المثال، في المجال السياسي، تُحدد المكانة بناءً على رأس المال السياسي والخطاب الأيديولوجي، بينما في المجال الأكاديمي، تُقاس المكانة من خلال رأس المال المعرفي والبحثي. وكلما كان الفرد أكثر إلمامًا بقواعد اللعبة الاجتماعية في مجاله، زادت فرص نجاحه وقدرته على التأثير.

علم الاجتماع بين الإدراك والواقع:

يؤكد بورديو أن علم الاجتماع ليس مجرد وسيلة لوصف الواقع، بل هو أداة لفهم كيف يتشكل الإدراك الاجتماعي. فالعالم الاجتماعي ليس شيئًا ثابتًا أو منفصلًا عن التفاعلات اليومية، بل هو نتيجة للصراعات الاجتماعية والتفاعلات التاريخية التي تعيد تشكيله باستمرار. لذلك، لا يكتفي الباحثون الاجتماعيون بوصف الواقع، بل يساهمون في تشكيله من خلال تفسيراتهم وتحليلاتهم.

رفض الحتمية الاجتماعية: إمكانية التغيير:

على الرغم من أن بورديو يقدم رؤية منهجية للعالم الاجتماعي، إلا أنه يرفض فكرة أن هذا العالم محكوم بقوانين حتمية لا يمكن تغييرها. فهو يعتقد أن الأنظمة الاجتماعية ليست ثابتة، بل هي نتيجة لتراكمات تاريخية ومؤسساتية يمكن تعديلها من خلال الفعل السياسي والاجتماعي. فكما أن الفاعلين الاجتماعيين يتكيفون مع قواعد اللعبة، فإنهم أيضًا قادرون على إعادة تشكيلها وتحديها من خلال الممارسات الجماعية والتغيير الاجتماعي الواعي.

نقد التنبؤات السوسيولوجية وتحديات الموضوعية:

ينتقد بورديو بشدة الاتجاه السوسيولوجي الذي يحاول التنبؤ بالظواهر الاجتماعية وكأنها قوانين علمية ثابتة. فهو يعتقد أن المجتمع أكثر تعقيدًا من أن يُختزل في نماذج رياضية أو نظريات عامة. كما أن العوامل الثقافية والتاريخية تلعب دورًا كبيرًا في تشكيل هذه الظواهر، مما يجعل التنبؤ الدقيق أمرًا صعبًا. لذلك، يدعو بورديو إلى استخدام مناهج تحليلية أكثر دقة وصرامة علمية، مع التأكيد على أهمية النظر إلى السياقات الخاصة بكل مجتمع بدلاً من الاعتماد على تعميمات مبسطة قد تؤدي إلى تحليلات مضللة.

بورديو وعلم الاجتماع النقدي:

يُعتبر بيير بورديو واحدًا من أبرز علماء الاجتماع في القرن العشرين، حيث قدم رؤية نقدية وعميقة حول كيفية عمل المجتمعات الحديثة. من خلال مفاهيم مثل الهابيتوس، والفضاء الاجتماعي، والمجالات الاجتماعية، أعاد تعريف العلاقة بين البنية الاجتماعية والممارسة الفردية، مُبرزًا كيف تتشكل القوى الاجتماعية بشكل غير مرئي، لكنها تؤثر بشكل كبير على سلوك الأفراد وقراراتهم. كما أكد على أن التغيير الاجتماعي ممكن، لكنه يحتاج إلى وعي بالمحددات الاجتماعية ورغبة حقيقية في إعادة تشكيل قواعد اللعبة الاجتماعية لتحقيق عدالة أكبر.